

الانعكاسات الاقتصادية لخروج الأندلسيين من إسبانيا

طبيبي عبد العالي¹

إشراف: د نبيله عبد الشكور

مقدمة

ما من شك في أن إخراج الأندلسيين من إسبانيا كان له الأثر الإيجابي في النفوس، ذلك لأن الحكومة الإسبانية استطاعت توحيد البلاد سياسيا ودينيا، والاستيلاء على كل الممتلكات التي كانت بيد الأندلسيين، لكن هذا الصدى الإيجابي سرعان ما تلاشى بفعل فقدان العناصر النشيطة التي غادرت البلاد تاركة وراءها الخراب الذي نتج عنه قلة الإنتاج الزراعي وكساد التجارة وركود الصناعة وتناقص عدد السكان.

فمع تساقط الحواضر الإسلامية تباعا بيد الإسبان تلاشت كل مقومات الدولة، بفعل مكوناتها البشرية المتحضرة التي كانت محور الاقتصاد والفن والثقافة والعمود الفقري في تطور الأندلس عبر كل عصوره، ومع خروجها حملت معها كل صنائعها وفنونها وبذلك فقدت إسبانيا أهميتها في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وتضررت كثيرا بفعل الفراغ الذي تركه المهاجرون بها، وانحدرت عظمة هذه الدولة التي كان إلى وقت قصير مركز العالم بفنه وصناعاته ومدارسه وجامعاته التي ملأت الدنيا، وقد حل محلها البؤس والفقر وخلت من طلاب العلم والتجار وغدت إسبانيا في ذيل الأمم مع إقصائها لأهم شريحة في مجتمعتها.

تأثير الهجرات الأولى على الاقتصاد

لقد انحدرت إسبانيا في أتون الظلام وتدهورت حالتها بفعل الخروج الكثيف للأندلسيين منها، ورغم أن الأندلس لم يكن قد ضاع كله، إلا أن هجرة الأغنياء والرؤساء وبعض رجال الدين أول الأمر تاركين وراءهم الضعاف من العمال والمزارعين وأهل المدن²، قد قضى على فنون كل الحواضر الإسلامية من طليطلة إلى اشبيلية فغرناطة فخرت المدائن وحل البؤس وعمت الفوضى وانحطت إسبانيا بعد خروج العرب منها³، ورغم أن تأثير الهجرة على إسبانيا كان تدريجيا موازاة مع سقوط المدن، حيث سمح الإسبان للمدجنين بالبقاء في البلاد لمعرفةهم بأن في بقائهم من الفائدة ما يجعلها تتغاضى عن ترحيلهم، لأن

¹ باحث في التاريخ الوسيط جامع الجزائر 2

² ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق وتعليق: حسين مؤنس، 2، دار المعارف، القاهرة 1985، ص 37

³ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، 4، مكتبة الخانجي، القاهرة 1997، ص 432

الضرورة الاقتصادية حتمت عليهم الإبقاء على الكثير منهم لخدمة الأرض والقيام بالأعمال التي يأنف منها الإسبان¹.

وحتى في الفترات اللاحقة عندما همت السلطات بإخراج من بقي من المدجنين من أماكن إقامتهم خرجت جماعات من الأشراف والنبلاء ليعارضوا هذا الإجراء، ليس حبا فيهم ولكن خوفا على مصالحهم وأعمالهم، وقد أدى ذلك إلى الموافقة على إبقائهم شريطة تحولهم عن دينهم ودخولهم في المسيحية²، إلا أن خروج المسلمين من إسبانيا بعد سقوط غرناطة وما تلاها من عمليات الطرد المتتالية وحتى بداية القرن السابع عشر كان له من التأثير ما جعل عظمة إسبانيا تهتز في نظر سادتها، وهنا يقول الكاردينال زمينز عن هجرة المسلمين من بلاده "إنهم يفتقدون إلى ديننا، ولكننا نفتقد إلى فنونهم³.

ومع سقوط غرناطة تسارعت الأحداث وبدأ حكام إسبانيا الجدد في طرد العرب منها وهم لا يعرفون أنهم بفعلهم هذا قد أقدموا على إدخال بلادهم في أتون الظلام الذي لن يخرجوا منه بعدما كانت هذه البلاد سلة أوروبا ومركز إشعاع للحضارة ومنبرا للفنون والعلوم عبر كامل تاريخها.

انخفض مردود الإنتاج الفلاحي بإسبانيا كثيرا نظرا للظروف التي واجهتهم بفعل هجرة اليد العاملة المختصة في هذا المجال، فخربت الضياع الكبيرة برحيل أهلها ومن يعمل بها وحل بها شبح الجوع بمن بقي من النصارى رغم كل الإجراءات التي قامت بها السلطات هناك، فهذه بلنسية التي كانت حديقة إسبانيا الغناء وتحمل المتعة إلى الأبصار وهي التي قلما يسقط المطر بها، إلا أن سكانها كانوا يستخدمون مياه الينابيع المنقولة بواسطة قنوات ضيقة من الآجر لري حدائقهم التي ظلت معظم وقتها مغطاة بالشجر والحشائش والعنب استحالَت إلى قفر جاف وموحش وبدا بها شبح الجوع الداهم بالرغم من أنه جيء بالكثير من السكان إليها ليعملوا مع من بقي من المسلمين هناك في خدمة الأرض⁴.

وحتى المدن التي كانت إلى وقت قريب تكتظ بالسكان والصناع والمهرة والتجار خوت وذهب مجدها، فهذه مدينة برغش التي عمرت بفضل تجارتها بالصوف القشتالي فقدت معظم سوقها، ومدينة

¹ عبد الرحمان علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ط2، دار القلم، دمشق 1981، ص534

² عنان، المرجع السابق، ص353

³ عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، أنتر ناسيونال برس، القاهرة 1983، ص290

⁴ عنان، المرجع السابق، ص420

شقوبية التي اشتهرت بصناعة الملابس الجميلة انتهت إلى غور شديد، وعجز كبار الملاك والنبلاء عن تسديد الضرائب المفروضة عليهم وأعلنوا إفلاسهم¹.

ومع أن الحكومة قد منحت كل السكان الجدد أضعاف ما كان يملكه المورسكيون من الأراضي إلا أن الإنتاج قد انهار بسبب قلة اليد العاملة المختصة في مجال الزراعة، وزاد لهيب الأسعار بشكل مفرط وقلت المعاملات التجارية حتى أن أحد الرهبان قال في الوضع الصعب الذي آلت إليه إسبانيا بعد خروج المورسكيين منها إنها كانت تدابير أملتها التقوى المسيحية، لكن فيما هو دنيوي هناك حاجة كبيرة إليهم، لأن أصحاب الأراضي لا يجدون من يعمل بها ولذلك فهم يمرون بحالة فقر مدقع².

أصبحت المدن كلها مرتعا لقطاع الطرق واللصوص الذين ملأت بهم القرى المهجورة وعانت البلاد بعد ما كانت أيام العرب في أبهى مجدها و أضحت اليوم مكانا للبؤس والانهيار³ وتضررت اسبانيا كليا من هذه الهجرة حيث اندثرت الصناعات التي كانت قائمة في البلاد أيام العرب كصناعة الأسلحة بسرقسطة وصناعة الحرير والورق وغيرها من الصناعات التي قال فيها أحد المؤرخين إن أسوأ شيء هو أنه بذهابهم افتقدنا شعبا كادحا وذكيا ومدربا على المهارات النافعة، وبمعنى آخر طبقة العمال الأكثر دفعا للضرائب⁴، وحتى الصناعات التي عرفت الازدهار في السابق تكاد تتعرض اليوم للدمار، فعوض عن اشتغال الإسبان بتصنيع إنتاجهم من الصوف والحرير كما في السابق، راحوا يصدرون تلك المواد إلى دول أخرى مثل هولندا وفرنسا وانجلترا من أجل تصنيعها والعودة إليهم بأسعار مرتفعة⁵.

التأثير الاقتصادي بعد الطرد:

تطبيقا لأحكام المرسوم الذي بموجبه تم طرد المورسكيين عملت كل الهيئات الرسمية و الشعبية على تنفيذ كل بنوده، اعتقادا منها أن ذلك هو الحل الأمثل لها وللشعب ككل للتخلص من المورسكيين إلى غير رجعة، وكل طرف كانت له أسبابه في ذلك، فالأثرياء كانوا يرون في أنفسهم الوريث الأصلي لكل ممتلكاتهم، في حين أن الفقراء وعامة الناس كانوا يرون في ذلك تنصلا من الأعباء التي كانت عليهم

¹ عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)، ص 351

² أنطونيو دومينغيز، و برنارد بنشنت، تاريخ مسلمي الأندلس المورسكيين حياة...ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، ط1، دار

الإشراق للطباعة والنشر، الدوحة قطر 1988، ص 255

³ عنان، المرجع السابق، ص 431

⁴ ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، المورسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة ومراجعة: وسام محمد جزر و جمال عبد الرحمان، ط1،

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2006، ص 114

⁵ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 195

تجاه المورسكيين خاصة تلك الديون التي كانت تثقل كاهلهم، ورغم أن الطرد حقق لإسبانيا ما كانت تصبوا إليه إلا أنه جلب لها من الخسائر ما لا يمكن تعويضه، فبخروج المورسكيين بدت القرى وهي خاوية على عروشها وقد سكنها الأشرار وقطاع الطرق وتناقصت أعداد العمال الذين يمثلون القسم الأكبر في مداخل الخزينة التي تأثرت كثيرا لهذا الطرد¹. ولم تستطيع إسبانيا الخروج من أتون التخلف الذي وضعت نفسها فيه إلا بمرور الكثير من الوقت والجهد.

حمل المورسكيون سر صناعتهم معهم وظلت البلاد لفترات طويلة من دون إنتاج، حتى في الفترات التي عملت فيها السلطات على تعويض هذا النقص بالمستوطنين الجدد الذين أعفاهم من الكثير من الضرائب تشجيعا لهم على خدمتها إلا أن الأمور ساءت كثيرا، بفعل جهل المزارعين الجدد بتقنيات الزراعة التي كان المورسكيون يمثلون فيها أهل الاختصاص².

يقول المؤرخ لافونتي الذي أثارت بعض آرائه الكثير من الانتقادات في إسبانيا على أساس أنها خرجت على المؤلف يقول: أسوأ شيء هو أنه بذهابهم افتقدنا شعبا كادحا وذكيا ومدربا على المهارات النافعة... والكل يتحمل نقص الأيدي العاملة والذكاء الذين أصبحا مستحيلا تعويضهما³.

ومن خلال قول، كامبو مانس يمكننا تحديد فترة بداية الآثار السلبية التي عانت منها إسبانيا بفعل طردها للمورسكيين حيث يقول: إن بدء تدهور صناعتنا يرجع إلى سنة 1609م، حينما بدئ بنفي المورسكيين، فمنذ ذلك الحين بدأ خراب المصانع، وعبثا حاول ساستنا أن ينسبوا كارثة القرن السابع عشر إلى أسباب أخرى، وهي وإن كانت جزئية فهي لا يمكن أن تصارع ضربة بهذه المفاجأة، وهي ضربة لم تستطع الأمة أن تنهض منها حتى اليوم،... ومن ثمة يمكن القول بأن بلاد العرب السعيدة قد استحالت إلى بلاد الغرب الفقراء⁴، التي هجرها أهلها وانهارت الكنائس فيها وتقوقضت المساكن حتى صار الناس يهيمون وزوجاتهم وأولادهم في الطرقات يأكلون العشب ويقتاتون بالجذور ويبحثون عن خلاص من هذه الشرور⁵.

¹ ميغيل أنخيل المرجع السابق، ص 109-111

² ميغيل أنخيل المرجع نفسه، ص 114

³ ميغيل أنخيل المرجع نفسه، ص 123

⁴ عنان، المرجع السابق، ص 422

⁵ بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص 351-352

لقد كان نشاط المورسكيين معينا لحياة الآخرين، لكن تهور إسبانيا المدعومة من الكنيسة المسيحية في سبيل الوحدة الدينية التي ضحت في سبيلها بكل شيء ، أدت إلى انحدارها سريعا إلى غمر اليأس والشقاء في الوقت الذي كانت فيه أمم أوروبا تنهض وتسير إلى الأمام¹.

وإذا تتبعنا الأحداث داخل كل مدينة فالأمر يختلف باختلاف نسبة وجود المورسكين فيها، ففي غرناطة التي أكثر المدن تأثرا بخروج المورسكيين منها بسبب كثرة وجودهم فيها والتي كانت تفوق كل المدن الإسبانية، فقد كتب المجمع الديراني مذكرة ذكر فيها أن هذا البلد أصبح خرابا لكونه كله كان من المورسكيين ، ثم أعيد توطينه بأناس تأهيلهم سيئ وليست لديهم رغبة في العمل².

أما في بلنسية التي كان فيها منتج الأرز والقمح يسجل دائما فائضا يساعدها في التصدير إلى الدول المجاورة، فقد أضحت بعد سنة 1609م من المستوردين لهذه المادة الحيوية من سردينيا نتيجة لفقر الحقول بالمدينة التي كانت حديقة إسبانيا الغناء³، والتي كان سكانها من المورسكيين يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء في سائر البلاد التي استحالَت إلى صحراء جافة مشوهة وقد حل بها شبح الجوع في كل مكان⁴.

أما في مدينة يثودار يال فقد أعلن مجلس إدارتها سنة 1623م أن عدد السكان قد وصل إلى ألف مواطن وكلهم فقراء، لأن طرد المورسكيين أدى إلى خروج حوالي خمسة آلاف شخص منها ، وهم الذين كانوا يساهمون في كل شيء من الضروريات ويزودون المدينة بكل ما تحتاجه⁵. وفي طليطلة التي كانت أول ما سقط من المدن الكبار في تاريخ الأندلس فقد أعلن نائبها في البرلمان سنة 1617م أنه من المستحيل عليه دفع ضرائب المكوس بسبب طرد ثلاثة آلاف مورسكي كان الكثير منهم رجال أعمال ولهم تجارات متنوعة⁶.

وفي اللحظة التي تأكد فيها المسلمون من إصرار الحكومة على تنفيذ قرار الطرد النهائي قاموا ببيع كل ممتلكاتهم وقايضوا أثمانها بالذهب، واتخذوا بعدها دارا للسباكة ضربوا فيها عملات مزيفة صنعوها

¹ عنان، المرجع السابق، ص428

² عبد الله محمد جمال الدين المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1،

دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991

³ جمال الدين، المرجع نفسه، ص276

⁴ عنان، المرجع السابق، ص426

⁵ جمال الدين المرجع السابق، ص294

⁶ جمال الدين، المرجع نفسه، ص294

بكميات كثيرة وروجوها في الأسواق، ولم يتم القضاء عليها إلا بعد الاستدانة، وإصدار مرسوم حرم بمقتضاه البيع والشراء أو تبادل العملة مع المورسكيين نظرا لوجود عملة مزيفة¹.

لوبالمجمل لم يمض وقت طويل على رحيل المورسكيين من أسبانيا حتى حل بها الكساد وساءت أحوال النبلاء بها فراسلوا الملك يشرحون له حالهم وكيف تراكمت عليهم الضرائب ولم يعودوا يستطيعون دفع مستحقات العمال، لأن كل ممتلكاتهم قد فقدت قيمتها، وصاروا ينزلون بأنفسهم إلى الحقول للعمل بأيديهم لكسب قوتهم وقوت عيالهم²، حتى أن المطران ريبيرا حينما خاطب الملك حول الأخطار التي أحدثها خروج المورسكيين من بلنسية قال ...: لكن أؤكد لجلالتكم أنني عندما أفكر في هذا (يقصد نتائج الطرد) فإنه تأتيني رغبة شديدة في أن يقبض الرب روعي قبل أن أرى تلك المصائب التي لن يستطيع أحد علاجها³.

لم ينتهي الأمر هاهنا بل وصلت هذه المعاناة إلى خزانة الدولة بفعل قلة مواردها التي كانت تعتمد على مداخيل الضرائب فراحت ترفع منها على الجميع خاصة منهم الحرفيين والعمال معللين ذلك الارتفاع برحيل المورسكيين الذين كانوا يمثلون سلة الخزانة الإسبانية من مداخيلها⁴.

والحقيقة أنه مع خروج المسلمين من الأندلس لم تتح الفرصة للمؤرخين في تداول تبعات هذا النزوح وانعكاساته على اسبانيا، بفعل التعنيم الذي مورس في وقته والذي كان لا يسمح بموجبه الا بتمجيد الانتصارات المسيحية على المسلمين دونما ذكر لتبعات هجرتهم على المدى القريب والبعيد، وحتى بعد الطرد الذي مورس بحق من بقي من المورسكيين بعد سقوط غرناطة لم يسمح بسماع الأصوات المعارضة لهذا العمل الشنيع ولا لآثاره المدمرة على البلد برمته، في حين كان للأصوات المؤيدة الكلمة العليا، ذلك أنها كانت تؤيد ما قامت به السلطات من مبدأ التخلص من المسلمين الذين كانوا في نظرهم من الغرباء الذين امتصوا خيرات بلادهم، ومع بروز جيل جديد من المؤرخين المتحررين بدأ التطرق للمأساة برمتها والتطرق لتبعاتها وهنا يقول الكاتب ستانلي لين بول تعقيا على ما أنزله الاسبان بالمسلمين من مذابح وتهجير بعد أن انتصروا عليهم في غرناطة: ... لكن الاسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم. فقد بقيت أسبانيا قرونا في حكم العرب ، الذين كانوا مركز ومنبع الفنون والعلوم،

¹ جمال الدين، المرجع نفسه، ص282

² بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص349

³ دومنغيز، المرجع السابق، ص263

⁴ دومنغيز، المرجع نفسه، ص255

والذي لم تصله أي مملكة في أوروبا، لقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من اسبانيا وضاعة لامعة، ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذي يستعير نوره من نور الشمس، وعقب ذلك كسوف بقيت بعده اسبانيا تتعثر في الظلام¹.

وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد الشعب الباسل اليقظ الذكي المستتير ، الذي أحيا بهيمته وجده تلك الأراضي التي أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجذب، فدر عليها الرخاء والفيض، ... ولكن شيئاً لا يدوم في هذا العالم ، فإن الشعب قاهر القوط ... قد ذهب ذهاب الأشباح فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ، لا نستطيع أن نجيب إلا أن نقول : إن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض... التي كان فيها الشرف والمجد العربي المغلوب، والانحلال والبؤس للإسباني الظافر².

الخاتمة

لقد تضاربت الآراء حول تأثير طرد المورسكيين على الاقتصاد الإسباني فمنهم من أنكر ذلك التأثير ونفى وجوده بالأساس معتبرا التهويل بشأنه من الأمور التي لا وجود لها، في حين ذهبت بعض الآراء إلى القول بوجود بعض الانعكاسات السلبية لهجرة الأندلسيين بعد الطرد وإن كانت هذه الأصوات قليلة مقارنة بسابقتها ، لكن على العموم يمكن أن نرجع ذلك إلى سببين رئيسيين هما:

- عامل الكثافة السكانية في المدن الإسبانية التي مسها التهجير، فكلما كانت الأعداد كبيرة كان التأثير كبير والعكس صحيح، لذلك تجد بعض الدراسات لا تكاد تغير هذا الجانب أي أهمية نظرا لاعتمادها على دراسة المناطق التي لم تكن فيها أعداد كبيرة من المورسكيين، في حين أن الدراسات التي أقرت بوجود تأثير اعتمدت في دراستها على المدن التي كانت بها كثافة سكانية عالية من المورسكيين

- العامل الثاني هو عامل المهارة أو التخصص الذي أبدع فيه المورسكيون دون غيرهم من السكان النصارى، لذلك كان خروج هذه الفئة بمثابة الضربة القاضية لتلك الحرف التي كانوا يمارسونها، والتي لم تجد من يعمل بها بعد خروجهم. وعليه لا يمكن لأي عاقل أن ينكر بأن خروج المورسكيين كان له من الأثر ما لا تخطئه عين ومن يقول بغير ذلك فهو ينكر الأمر الواقع كما جاء ذلك على لسان أحد المؤرخين الإسبان المتحررين من تأثير الكنيسة.

¹ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 197، بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص 353

² عنان، المرجع السابق، ص 431

وفي المجمل فإن الإسبان حين تمكنوا من القضاء على العرب لم يقوموا على تقديم البديل الحضاري والاقتصادي بل كان همهم الأول إخراج من كانوا يعتبرونهم الأعداء، لذلك تغيرت إسبانيا من حاضرة أوروبا الأولى إلى أتون الظلام والجهل الذي لم تفق منه إلا بعد مرور الكثير من الوقت والجهد.